# البُعد الجماليُّ في محاكاة الألفاظ للمعاني في القرآن الكريم

د. مُيسَّر عُذيمان السّاري
جامعة الفرات، كلية الآداب، فرع الحسكة.

**Artistic Aspect in the Words Emulating meanings in *Holy Quran***

**Dr. Muyassar Adhyman Al-Shari** - University of Furat, Faculty of Arts, Branch of Al-Haska

**مستخلص**

شغل اللَّفظُ والمعنى حيّزًا كبيرًا من الدرس اللغوي والأدبي والشرعي، ولاتزال العلاقة الوطيدة بينهما تثري مكتبتنا العربية بكل جديد في هذا المضمار؛ إذ هما وجهان لحقيقةٍ واحدةٍ تتمثَّل في مجرد التوصيل تارةً، وترتقي إلى أعلى درجات الإبداع تارةً أخرى، وبحثنا يتناول هذه القضيَّة من زاوية محدَّدة؛ إذ يتبَّع نماذج مختارة من الألفاظ الَّتي تحاكي معناها في القرآن الكريم، وتُظهِر شكلًا آخر من أشكال

**Abstract**

The word and meaning have occupied great space in linguistic, literary and legal study, and still the ardent relationship between them enriches our Arabic libraries with every new in this context, as they are two faces of one truth which is represented in just conveying one time and upgrading to the high levels of creativity in the other. Our study deals with this matter from limited perspective, since it follows selected samples of words that emulate its meaning in Holy Quran, and reveals another feature of mastery

إعجاز هذا الكتاب العظيم الذي لا تنقضي عجائبه. تسمَّى الألفاظ التي تحاكي معناها في النقد الحديث الألفاظ الموحية. تلك الَّتي ترسم بجرسها وموسيقاها وظلالها صورة المشهد المراد بدقَّة متناهية، وتثير هذه المحاكاة في كتاب الله تعالى تأثّرًا وإعجابًا وانبهارًا في نفوس المتلقّين، لا يضارعه شيء من كلام البشر أيًّا كان مستوى إبداعهم. وقد توقف علماء البلاغة ونقادها عند لفظة «مُستشزرات» لامرئ القيس على سبيل المثال بين معياريّ لا يجيزها لتنافر حروفها ومخالفتها سنَن التَّعبير البياني لدى العرب، و مدافعٍ عن جودة استعمالها؛ إذ برز الجمال في دقّة وصفها للشَعْر المتطاير في كل الأنحاء لتلك الفتاة الجميلة راسمًا لوحة جميلة رصدتها تلك المفردة الَّتي تحاكي معناها. وبدا الأمر مختلفًا في الألفاظ الَّتي تحاكي معناها في القرآن الكريم تلك الَّتي عالجها اللغويون والمفسرون، واستشعروا جمالها، ونقلوه لنا، فاعتمد البحث المنهج الوصفيّ الانتقائيّ باصطفاء نماذج للتّدليل على هذه الظَّاهرة الفريدة من جهة، ولبيان عظمة البيان الإلهيّ وإعجازه من جهة ثانية.

of this noble book that its wonders are endless. The words that emulate their meaning in modern criticism are called suggestive words which draw with their echo, music and tone a picture wanted in a precisely way. This emulation in the book of Allah evokes impression, appreciation and astonishment in the self of learners, which cannot be equivocal to any of human speech whatever the level of their creativity, is. The scholars of rhetoric and its critics have considered the word (مستشزرات) for Amri Al-Qais as instance between standard which its letters cannot prove and its violation to conventions of rhetorical expressions among Arab as well as his defense to the quality of its use. The beauty of its precise description of disperses poetry to that beautiful girl drawing a nice painting observed by that word which emulates its meaning. The matter started different in the words that emulate their meanings in Holy Quran and those which the linguists and interpreters handled, felt with their beauty and reported to us. This study employed descriptive selective method by selecting models to use as evidence for this unique phenomenon on one hand and to reveal the greatness of God's statement and mastery on the other.

**مقدمة:**

الألفاظ المدوَّنة في بطون المعاجم تؤدي دلالاتٍ عامَّة، وهي جذور مرتّبة منظّمة نعود إليها كلّما دعت الحاجة إلى ذلك. فهي أشبه بلَبِنات مختلفة الأحجام والقياسات يستعمل منها البنَّاؤون المهَرة ما يلبي احتياجاتهم، وكذلك حال الألفاظ عندما تخرج من رحِم المعجم، وتنتظم مع غيرها في تراكيب متعدّدة في سياقات متنوعة، وتلقي بظلالها على ما حولها من مفردات، أو تستظل بها إن كانت أكثر جذبًا وأقوى دلالة، وهذا الانتظام والانسجام له غرض التَّفاعل مع الآخر للتأثير فيه تأثيرًا نفعيًّا وظيفيًّا في معظم الأحيان. وقد يتجاوز ذلك إلى الإمتاع تارةً، والإقناع تارةً أخرى.

بهذا الاختيار تتجلَّى براعة مستعملي اللغة، وفيه يتنافس المتنافسون، ويرتقي المبرِّز منهم أعلى الدرجات على سلم الإبداع، من هنا كان المبدعون من شعراء وكُتَّاب قلَّة بالقياس على عدد سكان المعمورة، وفي كثير من الأحوال لم تكن الألفاظ طيِّعة لهم، فأعادوا النظر في مُبْدَعاتهم مراتٍ ومراتٍ حتى تنضج، وتؤتي أكلها في المهرجانات الشّعرية والأندية الأدبيَّة. ولا أدلَّ على ذلك من مقولتهم الشهيرة: «خير الشّعر الحوليُّ المُحكّك»، وبروز قومٍ سُمُّوا: «عبيد الشّعر» لما يبذلون من جهود مضنية للارتقاء بفنهم.

على أنَّ الأمر مختلف تمامًا في ألفاظ القرآن الكريم الَّتي جاءت تحاكي المعاني الَّتي صيغت من أجلها، فترى اللَّفظة الواحدة تصوِّر مشهدًا كاملًا من مشاهد الحياة، وقد تتجاوز ذلك، وتتعدَّاه لتعبِّر أصدق تعبير عمَّا يدور في خبايا النَّفس البشريّة من مشاعر وأحاسيس. إنَّه كلام الباري عزَّ وجلَّ الذي أعجز بنظمه كلّ الفصحاء، وتحداهم أنْ يأتوا بسورةٍ من مثله.

**مُحاكاة الألفاظ معانيها بين البلاغة والنّقد والنّحو:**

قبل الخوض في ذكر نماذج لمحاكاة الألفاظ لمعانيها في كتاب الله عزَّ وجلَّ نتوقف عند الشّروط الَّتي وضعها علماء البلاغة المعياريّون للّفظةِ كي تكون فصيحة رشيقة

تتفاعل مع محيطها التّركيبيّ، ثم نرى ذلك لدى بعض النُّقاد الذين كان لهم رأيٌ مغاير، ثم نستطلع ما قاله النُّحاة وغيرهم في هذا المضمار.

قال الخطيب القزوينيّ (ت ٧٣٩هـ): «أمَّا فصاحة المفرد فهي خلوصه من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس اللغوي. فالتَّنافر منه ما تكون الكلمة بسببه متناهية في الثّقل على اللّسان وعسر النّطق بها... ومنه ما هو دون ذلك كلفظ «مُستشزرات» في قول امرئ القيس:

غدائـرُه مُسْـتَشْزِراتٌ إلى العُـلا تَضِـلّ العِقَـاصُ فِي مُثَـنَّى وَمُرْسَـلِ»[١]

شرح الزَّوزنيّ (ت ٤٨٦هـ) هذا البيت بقوله: «ذوائبها وغدائرها مرفوعات أو مرتفعات إلى فوق، يراد به شدّها على الرأس بخيوط، ثم قال: تغيب تعاقيصها في شعر مثنًى وبعضه مرسل، أراد به وفور شعرها، والتعقيص التجعيد»[٢].

في حين «يرى بعض الدارسين أنَّ في صوت كلمة (مُستشزرات) حكاية دقيقة لمعناها، أي: أنّ التّفشّي الذي تلحظه في صوت الشّين، وانتشار الهواء وامتلاء الفم به حين النُّطق، يشبه إلى حدٍّ كبير انتشار الشّعر، وتشعيثه، وذهابه إلى هنا وهناك، وعندنا أنَّ بطء الكلمة، وثقلها على اللسان يذهب بهذه المزية فيها من حيث إنه يتعارض مع خفة معناها؛ لأنَّها تصف شعرًا جميلًا خفيفًا هفهافًا يرتفع إلى العلا، وينبغي أن يلاحظ أن استعمال هذا المقياس يحتاج إلى وعي وذوق؛ لأن هناك كلمات ثقيلة على اللسان، ولكن ثقلها من أهم مظاهر فصاحتها من حيث إن هذا الثقل يصور معناها بحق»[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم: ٢٢] قال ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) «حضر عندي في بعض الأيّام رجل متفلسف، فجرى ذكر القرآن الكريم، فأخذت في وصفه، وذكر ما اشتملت عليه ألفاظه ومعانيه من الفصاحة والبلاغة، فقال

(١) القزوينيّ،محمد بن عبد الرحمن بن عمر، الإيضاح في علوم البلاغة تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط (٣)،ج١ص ٢١-٢٦.

(٢) الزَّوْزَنِيّ، أبو عبد الله حسين بن أحمد بن حسين، شرح المعلّقات السَّبع، دار إحياء التُّراث العربيّ، ط(١) ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢ م، ص ٥٥.

(٣) أبو موسى، محمد: خصائص التّراكيب (دارسة تحليليَّة لمسائل علم المعاني) مكتبة وهبة، ط (٧)، ٦٣.

ذلك الرجل: وأيّ فصاحة هناك، وهو يقول: تلك إذًا قسمة ضيزى؟ فهل في لفظة (ضِيزَى) من الحسن ما يوصف؟ فقلت له: اعلم أنَّ لاستعمال الألفاظ أسرارًا لم تقف عليها أنت ولا أئمتك..... وهذه اللَّفظة الَّتي أنكرتها في القرآن، وهي لفظة (ضِيزَى) فإنَّها في موضعها لا يسدّ غيرها مسدّها؛ ألا ترى أنَّ السُّورة كلّها الَّتي هي سورة النَّجم مسجوعة على حرف الياء [الألف المقصورة]، فقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ١- ٢] وكذلك إلى آخر السُّورة، فلمَّا ذكر الأصنام وقسمة الأوَّلاد وما كان يزعمه الكفار قال: أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى؟ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى. فجاءت اللَّفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السُّورة جميعها عليه، وغيرها لا يسدّ مسدّها في مكانها، وإذا نزلنا معك أيُّها المعاند على ما تريد قلنا: إنَّ غير هذه اللَّفظة أحسن منها، ولكنَّها في هذا الموضع لا ترد ملائمة لأخواتها، ولا مناسبة؛ لأنَّها تكون خارجة عن حرف السُّورة، وسأبيّن ذلك فأقول: إذا جئنا بلفظةٍ في معنى هذه اللَّفظة قلنا: قسمة جائرة أو ظالمة ولا شك أنَّ جائرة أو ظالمة أحسن من ضيزى، إلا أنَّا إذا نظمنا الكلام قلنا: ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ظالمة لم يكن النَّظم كالنَّظم الأوَّل، وصار الكلام كالشيء المُعْوِز الذي يحتاج إلى تمام، وهذا لا يخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام، فلما سمع ذلك الرَّجل ما أوردته عليه ربا لسانه في فمه إفحامًا، ولم يكن عنده في ذلك شيء سوى العناد الذي مستنده تقليد بعض الزَّنادقة الذين يكفرون تشهيّا، ويقولون ما يقولونه جهلًا وإذا حُوققوا عليه ظهر عجزهم وقصورهم»[1].

وقد فطن ابن جنيّ (ت ٣٩٢هـ) إلى محاكاة الألفاظ لمعانيها في خصائصه، فعقد بابًا سمّاه: **بابٌ في إمساس الألفاظ أشباه المعاني**، وممّا جاء فيه قوله: «اعلم أنّ هذا موضع شريف لطيف، وقد نبَّه عليه الخليل وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته. قال الخليل: كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدًّا فقالوا: صَرَّ، وتوهموا في صوت البازيِّ تقطيعًا، فقالوا: صرصر. وقال سيبويه في المصادر الَّتي

(١) ابن الأثير، أبو الفتح، ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري:المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر بيروت١٤٢٠ هـ ج١، ص ١٦١-١٦٢.

جاءت على الفَعَلان: إنّها تأتي للاضطراب والحركة، نحو: النّقزان، والغَليان والغثيان، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال. ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سَمْت ما حدّاه، ومنهاج ما مثّلاه. وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعَّفة تأتي للتكرير نحو: الزّعزعَة، والقلقلة، والصّلصلة، والقعقعة والصّعصعة والجرجرة والقرقرة، ووجدت أيضًا الفَعَلى في المصادر والصفات إنما تأتى للسرعة نحو: البشكى والجمزى والولقى»[1].

وبعيدًا عن الجانبين البلاغي والنحوي وقريبًا من قضية المحاكاة هذه تنبّه ابن القيّم ( ت ٧٥١هـ) إلى نوع طريف من المحاكاة في بنية الكلمة، فقال: «ولو أطلقنا عنان القَلَم في ذلك لطال مداه، واستعصى على الضَّبْط. فلنرجع إِلَى مَا جرى الْكَلَام بِسَبَبِهِ فَنَقُول: الْمِيم حرف شفهي يجمع النَّاطِق بِهِ شَفَتَيْه، فَوَضَعته الْعَرَب علمًا على الْجمع فَقَالُوا للْوَاحِد: أَنْت فَإِذا جاوزوه إِلَى الْجمع قَالُوا: أَنْتُم، وَقَالُوا للْوَاحِد الْغَائِب: هُوَ فَإِذا جاوزوه إِلَى الْجمع قَالُوا: هم..... وَتَأمل الْأَلْفَاظ الَّتِي فِيهَا الْمِيم كَيفَ تَجِد الْجمع معقودًا بهَا مثل: لمَّ الشَّيْء يلمُّه إِذا جمعه، وَمِنْه لمَّ الله شعثه، أَي: جمع مَا تفرق من أُمُوره، وَمِنْه قَوْلهم: دَار لمُومة، أَي: تلمّ النَّاس، وتجمعهم..... وَمِنْه ألمَّ بالشَّيْء إِذا قَارب الِاجْتِمَاع بِهِ والوصول إِلَيْهِ، وَمِنْه اللَّمم: وَهُوَ مقاربة الِاجْتِمَاع بالكبائر وَمِنْه المُلمَّة: وَهِي النَّازِلَة الَّتِي تصيب العَبْد، وَمِنْه اللّمة: وَهِي الشّعر الَّذِي قد اجْتمع، وتقلص حَتَّى جَاوز شحمة الْأذن،وَمِنْه التمّ الشَّيْء وَمَا تصرف مِنْهَا وَمِنْه، بدر التّم إِذا كمُل، وَاجْتمعَ نوره، وَمِنْه التوأم للولدين المجتمعين فِي بطن، وَمِنْه الْأُمّ، وَأمّ الشَّيْء: أَصله الَّذِي تفرع مِنْهُ فَهُوَ الْجَامِع لَهُ، وَبِه سميت مَكَّة أمّ الْقرى والفاتحة أمّ الْقُرْآن واللوح الْمَحْفُوظ أمّ الكتاب»[2].

(١) ابن جنّي، أبو الفتح عثمان: الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط (٤)، ج ٢، ص ١٥٣، ١٥٤. الزَّعْزَعَةُ: تحريك الشيء لتَقْلَعَهُ، وتُزِيلَهَ. القعقعة: صوت الرَّعد. الصَّعصعة: التحريك والقلقلة، والجرجرة: الصوتُ، القرقرة: صفاء هدير الفحل وارتفاعه، والصَّلصلة: صوت الجرس، البَشَكَى والجمزى والولقى: ضروب من الْمَشْي.

(٢) ابن القيّم: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد: جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، تح: شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة الكويت، ط (٢)، ١٤٠٧ ١٩٨٧.ص ١٥٠.

**نماذج لمحاكاة الألفاظ معانيها في القرآن الكريم:**

هذه بعض النَّماذج القرآنية الَّتي بدا فيها التَّلاحم بين الألفاظ ومعانيها في صورة تؤكد أنَّ الباري عزَّ وجلَّ أنزل كتابه العظيم مراعيًا الدقَّة في دلالة الألفاظ على المعنى المراد من غير لبْس ولا تمويه، قال الله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ *وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ * **فَكُبْكِبُوا** فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشّعراء: ٩١ – ٩٥] ، فالكفار يُطْرحون في الجحيم بعضهم على بعض مع شياطينهم، منكبِّين على وجوههم، والكبكبة: تكرير الكبِّ، فجعل التَّكرير في اللَّفظ دليلًا على التَّكرير في المعنى، كأنَّه إذا ألقى في جهنّم ينكبُّ مرة بعد مرة حتى يستقرّ في قَعرها[١]. ونقلت لنا لفظة ( كُبْكِبوا)، صورة الأصنام الَّتي كان الغاوون يعبدونها من دون الله، وهي تُكبْكب في النّار، وتتساقط فلا تقوى على نفع نفسها، ولا تنْتصر لنفسها، ولا لهؤلاء الغاوين الذين يُكبون معها هم وجنود إبليس، فلا يقوى أحد منهم على الحركة أو التخلص من هذا العذاب، كلّهم منقادون لصنع الله بهم[٢]، «وفي التعبير بـ (كُبْكِبوا) تصوير صادق مؤثر لحالة هؤلاء الضالين، وهم يتساقطون في جهنّم، بلا رحمة، ولا عناية، ولا نظام، بل بعضهم فوق بعض وقد تناثرت أشلاؤهم»[٣].

وأسهمت البنية الصرفيّة في محاكاة اللَّفظ للمعنى المُراد، فجاءت بصيغة الرّباعي المضعّف الذي يتكرّر حرفه الأوَّل مع حرفه الثالث، وحرفه الثاني مع حرفه الرابع، لتفيد تكرار الحدث والمبالغة فيه، بأنّهم يُكبّون كبًّا بعد كبٍّ، فهو أمر متكرر، فكبكبوا مضاعف كُبّوا بالتَّكرير ولا شكّ أن تكرير اللَّفظ مفيد لتكرير المعنى[٤]،

(١) ينظر: الطَّبريّ، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان في تأويل القرآن، تح: محمود محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(١)، ٢٠٠٠م، ج١٩،ص٣٦٧، والزمخشري، محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ،ج٣، ص٣٢٢.

(٢) الشريف، نورة سعيد: التصوير بالحقيقة في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود ص٧٠.

(٣) طنطاوي، محمد سيد: التفسير الوسيط، دار نهضة مصر، القاهرة، ط (١)، ١٩٩٧م، ج ١٠،ص٢٥

(٤) ابن عاشور، الطاهر: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ط (١)١٩٨٤، ج٢٠، ص١٥٢، والتصوير بالحقيقة في القرآن الكريم، ص٧٠.

فاللَّفظة جاءت موحية إذْ تظهر صورة تلك الأصنام وهي تُكبُّ مع عابديها في هوّة عميقة في نار جهنّم، وها هي الأصنام الَّتي كانوا ينظرون لها بعظمة وتبجيل، تكبُّ في نار جهنّم، وتتساقط جارفة معها أولئك الذين تعلّقوا بها، وصرفوا لها العبادة من دون الله. كما تستشعر من لفظة الكبكبة، العنف، حتى لتكاد تتصوّر أولئك المجرمين يكبّون على وجوههم، أو على مناخرهم، ويلقون إلقاء المهملين، فلا يقيم أحد لهم وزنًا، هذا كلّه في اللَّفظة المفردة، حيث تعبر تعبيرًا مستقلًا عن لوحة كاملة(١).

أما الفعل (دمْدَم) ببنيته المتضمِّنة تكرير الحروف المكوّنة له في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا **فَدَمْدَمَ** عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١١ – ١٥]. فجاء محاكيًا المعنى المراد؛ إذ « الدمدمة الغضب، وما يتبعه من تنكيل. واللَّفظ ذاته.(دمدم) يوحي بما وراءه، ويصوّر معناه بجرْسه، ويكاد يرسم مشهدًا مروّعًا مخيفًا، وقد سوّى الله أرضهم عاليها بسافلها»(٢)، ولم يتوقف الأمر عند محاكاة هذه اللَّفظة، بل جاء التّركيب كلّه يحاكي « المشهد الذي يرتسم بعد الدّمار العنيف الشّديد.جاء التَّرتيب في هذه الآيَة وفق ترتيب الأحداث في الواقع وهو أمْرٌ مستحسنٌ بديع»(٣).

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ **تَؤُزُّهُمْ أَزًّا**﴾ [مريم- ٨٣]. فسّر ابن جنيّ الأزَّ بقوله: « أي: تزعجهم وتقلقهم، فهذا في معنى تهزّهم هزًّا، والهمزة أخت الهاء، فتقارب اللَّفظان لتقارب المعنيين. وكأنهم خصّوا هذا المعنى بالهمزة؛ لأنَّها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهزِّ؛ لأنك قد تهزّ ما لا بال له كالجذع وساق الشجرة»(٤)، وقال الزمخشري (ت ٥٣٨ه): «الأزّ، والهزّ، والاستفزاز

(١) الصالح، صبحي: مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط (٤)، ٢٠٠٠م، ص ٣٣٦.
(٢) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة ط (١٧)، ١٤١٢ه،ج ٦، ص ٣٩١٩.
(٣) حبنّكة، عبد الرحمن حسن: البلاغة العربية، دار القلم دمشق الدار الشامية بيروت، ط (١)،١٤١٦ه، ١٩٩٦م، ج ٢ ص ٤٦٠.
(٤) ابن جنيّ: الخصائص، ج٢، ص ١٤٨.

أخواتٌ، ومعناها التّهييج وشدَّة الإزعاج، أي: تغريهم على المعاصي وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات[ما يحدث به الإنسان نفسه]. والمعنى: خلّينا بينهم وبينهم، ولم نمنعهم ولو شاء لمنعهم قسرًا. والمراد تعجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الآيات الَّتي ذكر فيها العتاة والمردة من الكفار، وأقاويلهم، وملاحّتهم، ومعاندتهم للرسل، واستهزاؤهم بالدين»[1]. وقد جاءت الهمزة والزَّاي المشدَّدة في مقام يوحي بالشدة متمثّلًا بهذا التَّركيب الفعليّ المؤكد بالمصدر: (تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) محاكيًا المعنى المراد.

ولمّا اختلف المقام اختلفت دلالة اللَّفظة الذي تستعمل فيه. قال تعالى حكاية عن السّيّدة مريم في محنتها: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا * فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * **وَهُزِّي** إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٣ – ٢٥] فقال سبحانه: (هُزِّي) هنا، ولم يقل: (أُزِّي)، كما قال في آية إرسال الشياطين على الكافرين (تؤزُّهم)، ولم يقل: (تهزُّهم)، وذلك للفارق الدلالي بين السّياقين: سياق الشّدة والعنف، وسياق اللين والحنان ومراعاة التناسب بين المعنى والمبنى. وهذا من رائع بيان القرآن ودلائل إعجازه.

ومن خلال استعمال لفظة (هُزّي) «كأنّ الحقّ تبارك، وتعالى يريد أنْ يُظهِر لمريم آية أخرى من آياته، فأمرها أنْ تهزَّ جذع النخلة اليابس الذي لا يستطيع هَزَّه الرَّجل القويّ، فما بالها وهي الضعيفة الَّتي تعاني ألم الولادة ومشاقّها ؟ كما أنّ الحق سبحانه قادر على أنْ يُنزِل لها طعامها دون جَهْد منها ودون هَزِّها، إنّما أراد سبحانه أنْ يجمع لها بين شيئين: طلب الأسباب والاعتماد على المسبّب، والأخذ بالأسباب في هَزِّ النّخلة، رغم أنها متعَبة قد أرهقها الحمل والولادة، وجاء بها إلى النَّخلة لتستند إليها، وتتشبث بها في وحدتها لنعلم أنَّ الإنسان في سعيه مُطَالب بالأخذ بالأسباب مهما كان ضعيفًا، لذلك أبقى لمريم اتخاذ الأسباب مع ضَعْفها وعدم قدرتها، ثمّ تعتمد على المسبِّب سبحانه الذي أنزل لها الرُّطَب مُسْتويًا ناضجًا. وهل استطاعت مريم أنْ تهزَّ الجذع

(١) الزّمخشريّ: الكشاف، ٢، ٤٢.

الكبير اليابس؟ إنها مجرد إشارة إليه تدلُّ على امتثال الأمر، والله تعالى يتولّى إنزال الطّعام لها»[1].

أما في تصوير الكيفية الَّتي كان الكافر يمشي بها فيأتي قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ **يَتَمَطَّى**﴾ [القيامة: ٣١ – ٣٣]. كافر من قريش قيل: إنه أبو جهل بن هشام[2]، وهذه صورة ممجوجة لمشية هذا الكافر المتغطرس، تفصح عن كبريائه وغروره، وتتمّ رسم صورة جهله وإعراضه، فقال: ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾. فإيقاع الآية مشعر بمِشية الكِبْر لدى هذا المشرك المتعالي، ولكن يهمّنا كثيرًا هنا هذه اللَّفظة الَّتي وقعت محاكية وفاصلة، وهي: (يتمطّى) إذ وردت لامها ألفًا، وهي الطَّاء الثَّانية في أصل الكلمة إذ أصلها: (يتمطّط)، ولكنّ التّعبير القرآني عدَل عن الطّاء الَّتي في آخر اللَّفظة، إلى الألف بدلًا منها، لا لمجرّد اتساق حروف الرويّ فيها مع سائر الفواصل الَّتي تلتها، مثل (أَوْلَى)، و(سُدى)، و (يُمْنى)، و (سَوًّى)؛ إذ إنّ هذا ملحظ شكليٌّ ليس هو المراد هنا، وإن كان له قيمته الصّوتية الإيقاعيّة المؤثرة في نفس المتلقّي، وإنّما ورد (يتمطَّى) معدولًا عن أصله الطّائي (يتمطّط)، إلى الألف الواقعة حرف رويّ للفاصلة إيحاءً بتبختر صاحب هذه المِشية، وإشعارًا بما في نفسه من الزَّهو والخيلاء الفارغين من بواعث الحق والخير؛ إذ معنى (يتمطَّى) في اللغة: يتبختر، وأصله: يتمطَّطُ[3]، أي: يتمدّد؛ لأنّ المتبختر يمدّ خطاه. وقيل: هو من المطا، وهو الظهر؛ لأنه يلويه عند سيره. وأيًّا كان الأصل، فإنّ هذا اللَّفظ (يتمطَّى) حاكى صورة عملية مرئية لكِبْر ذلك الكافر وخيلائه الفارغة.

ويهمنا هنا كيف حاكى مدُّ الصّوت بالألف هذه المشية المكروهة المنهيّ عنها. فإذا قرأنا (يتمطَّى) بأداء صوتي مُجوّد، فأعطينا الطاء الشّديدة المطبقة المكررة بالتّشديد حقّها من الأداء الصّوتي، وأتبعناها مَدّة الألف واقفين عليها، حاكت الصورة اللَّفظية

(١) الشعراوي، محمد متولي: تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م، ج ١٥، ص ٩٠٦٧ـ ٩٠٦٨.

(٢) ينظر: الطَّبريّ: جامع البيان في تأويل القرآن، ج ٢٣، ص ٥٢٣.

(٣) الفخر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر: مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط (٣)١٤٢٠هـ،ج ٣٠ ص ٧٣٦.

تلك المشية المْقوتة مِشية التلوّي صعودًا إلى الأعلى ونزولًا. وذلك من رائع محاكاة الألفاظ للمعاني في القرآن عن طريق الإيحاء الصّوتي، مضافًا إلى الدلالة اللغوية الأصلية للفظة، الَّتي تعرفها العرب في تحاورها.

أمّا صراخ الكفار في نار جهنّم -أجارنا الله منها- فجاءت صورته في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جهنّم لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ* وَهُمْ **يَصْطَرِخُونَ** فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٦- ٣٧] فقولهُ:(يَصْطَرِخُونَ) يفتعلون من الصُّراخ، وهو الصِّياح بجهد وشدّة، أيْ: يستغيثون في النّار بالصّوت العالي، والصّارخ المستغيث[١]. وهذا ما أكّده الزركشيُّ (ت ٧٩٤ه) بقوله: « اعلم أنّ اللّفظ إذا كان على وزن من الأوزان، ثم نقل إلى وزن آخر أعلى منه فلا بدّ أنْ يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أوّلًا؛ لأنّ الألفاظ أدلّة على المعاني. فإذا زيدت في الألفاظ وجب زيادة المعاني ضرورة، و (يَصْطَرِخُونَ)، فإنّه أبلغ من (يتصارخون)»[٢]. فنجد هنا قوةً في الحروف وتثاقلًا في النطق مع طول الكلمة، لأنَّها تعبّر عن أصواتهم الغليظة المتجاوبة من كلّ مكان بعد أنْ استقرّوا في نُزُلهم، فلمّا طال مُكْثهم وطال عويلهم طال نظم حروف الكلمة المُعبّرة عن ذلك، فجاء التعبير عن أصواتهم بلفظ أطول وحروف أكثر»[٣].

إنّ شدّة الصاد الذي يُجاور كلًا من الطّاء والراء، وكذلك الخاء، فيوجدُ أربعةُ أحرف احتكاكيّة تقوم بدور حِسّي يصوِّر معالجة النّار لأجسادهم، كما أنّ الطاء يضيف معنى الشدِّة في استغاثة الكافرين. إنّه صُراخٌ قويّ نابع من نفوس مُحطّمة يائسة[٤]، فإن الإصغاء إلى جرس هذه الكلمة ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾، الَّتي ترسم صورة تملأ الأذن اضطرابًا،

(١) ينظر: الطبري: جامع البيان:٤٧٦/٢٠، والكشاف:٦١٥/٣، ومفاتيح الغيب:٢٤٢/٢٦، والتحرير والتنوير، ج٢٢،ص٣١٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن:٣٤/٣.

(٣) أحمد، صلاح الدين: التصوير المجازي والكنائي، مكتبة سعيد رأفت، مصر، ط (١)،١٩٨٨م، ص١٨.

(٤) الياسوف، أحمد: جماليات المفردة القرآنية، دار المكتبي، دمشق، سورية، ط (٣)،٢٠٠٩م، ص٢٢٧-٢٥٠.

وصراخًا وصوتًا غليظًا، وعويلًا من شدّة العذاب والألم الذي يعانيه الكافرون في نار جهنّم، كما أننا نسمع من جرس اللّفظ ضجة الاصطراخ والنّداء والصّوت الغليظ والإيقاع العنيف، فنرى القلق والاضطراب وعدم الاستقرار على حال، ثم ها نحن أولاء يطرق أسماعنا صوت غليظ محشرَج مختلط الأصداء، متناوح من شتى الأرجاء، فجَرْس اللّفظ نفسه يلقي في الحسّ هذه المعاني جميعًا، ويفيض بها من الكلمات، بما تعجز جيوش من الكَلِمِ أن تقوم بما قام به جرسها.

وغير بعيد عمّا سبق لكن مع اختلاف المقام يأتي قول الحق تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جهنّم وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * **يَتَجَرَّعُهُ** وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٥ – ١٧]. المعنى كما قال المفسّرون: أمام كلّ جبَّار عنيد جهنّم بانتظاره، ويسقى في النّار من ماء صديد، أيْ: مما يسيل من أجساد أهل النّار من قيح ودم، فهو ليس بماء في الحقيقة، وإنما ماؤه هذا الصّديد المتغير الذي يخرج من الجوف، يتحسّاه جُرعة بعد جرعة، ولا يكاد يبتلعه لكراهته، وسوء طعمه ولونه وريحه، ممّا يدل على التّألم حين ابتلاعه(١). فلفظة (يتجرّعهُ) بيان لحال هذا الجبّار العنيد عند تعاطيه الصّديد، حال من أحوال شقائه وعذابه، والمشهد هنا عجيب، إنَّه مشهد الخيبة لكل جبّار عنيد، حيث يقف هذا الموقف، ومن ورائه تخايل جهنّم وصورته فيها، وهو يسقى من الصّديد السائل من الجسوم، يُسقاه بعنف فيتجرّعه غصبًا وكرهًا، ولا يكاد يسيغه، لقذارته ومرارته، والتقزز والتكرّه باديان نكاد نلمحهما من خلال لفظ (يتجرّعهُ). إنّه مشهد عجيب يرسم الجبّار الخائب المهزوم ووراءه مصيره يخايل له على هذا النحو المروّع الفظيع. «وفي التفعّل تكلّف ومعنى التكلّف أنَّ الفاعل يتعانى ذلك الفعل ليحصل بمعاناته»(٢)، والجَرَعُ والجَرْعَاء: رمل لا ينبت شيئاً كأنّه يتجرع البذر(٣).

(١) ينظر: الطبري:جامع البيان،ج١٦،ص٥٥٠، والكشاف،ج٢،ص٥٤٦، والتحرير والتنوير،ص١٢،ص٢٣٩.

(٢) حقي الإستانبولي، إسماعيل، تفسير روح البيان، دار إحياء التراث العربي، بيروت،(د ت)ج٤، ص٢٦٩.

(٣) ينظر: الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، تح: صفوان عدنان الداوودي، دار العلم، الدار الشامية، دمشق، ١٤١٢هـ، ج١، ص١٩٢.

وأدّت لفظة (يتجرّعه)، معنى العمل المتكرر في مهلة وأخذ الشيء بعد الشيء، إذْ نقلت هيئة واحد من أهل النّار يُسقى من ماء صديد لا يجد له شرابًا غيره، وحين يستبدّ به العطش فيأخذه ليشرب فإنّه لا يستطيع فعل ذلك دفعة واحدة بالرغم من شدّة حاجته للشرب، بل يشربه جزءًا بعد جزء، يحاول استساغته وتقبّله، ولكنّه لا يسيغه(١).

وتسهم لفظة (يُدَعُّونَ) فتصور مشهدًا آخر من مشاهد يوم القيامة في قول المولى عزَّ وجلَّ: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ* الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ **يُدَعُّونَ** إِلَى نَارِ جهنّم دَعًّا ﴾ [الطور: ١١ – ١٣] المكذبون يوم يدفعون إلى نار جهنّم دفعًا عنيفًا شديدًا بإرهاق وإزعاج. والدَّعُّ: الدفع العنيف، وذلك أن خزنة النّار يغلون أيدي الكفّار إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ويدفعونهم إلى النّار دفعًا على وجوههم وزخًّا في أقفيتهم(٢)، فلفظةُ (الدّعّ) تحاكي بجرْسها مشهدًا عنيفًا مفزعًا، نرى ونسمع ما يزلزل، ويرعب، من ويل وهول، وتقريع وتفزيع للمكذّبين، والملائكة تلجئهم إلى الإذعان والاستسلام، وهي حركة غليظة تليق بهم، فيساقون سوقًا، ويدفعون في ظهورهم دفعًا إلى جهنّم.

كلُّ تلك المعاني أوْحت لنا بها لفظة (الدّعّ)، فهي جملة من المعاني يشترك فيها اللَّفظ بجرْسه وإيحائه، الذي جعلنا نتصوّر مشهد دفع المكذّبين في نار جهنّم، ولهم أصوات الإزعاج من جرّاء الدفع بعنف في أقفيتهم وظهورهم، فيحصل لهم العذاب الأليم والمعاناة، جزاء بما كسبت أيديهم في الدنيا، وقد تقاطعت هذه المعاني مع إيحاء اللَّفظة بها، ومع جرْسها من خلال الإيقاعات الموسيقية لمقاطع الكلمة وحروفها.» رسمت بنظم حرف الدال مع العين الصّوت الذي يخرج من الإنسان عندما يُدفع بشدة في ظهره، وذلك يوحي بأنّه دفعٌ شديد يحصل به الألم الذي لا يجد المتألّم حياله إلا أنْ يَفتح فاه ليخرج هذا الصّوت الذي هو مظهر الشدة والألم معًا، ولو عبّر عنه بالدفع مثلًا لأفاد

(١) ينظر: الشريف، نورة سعيد: التصوير بالحقيقة في القرآن الكريم، رسالة ماجستير(مخطوط)، جامعة الإمام محمد بن سعود.ص٦٦.

(٢) والزَّخُّ: دفْعُك الإنسانَ فِي وَهْدَة. ابن منظور، محمد بن مكرم:لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، مادة(زخخ).

الشدّة فقط، وربّما فهم أنّها شدّة محتملة، ولكنّ مجيء اللّفظ القرآني بهذه الحروف خاصة ليبرز ألمهم وعويلهم، وأنّه فاضح لأصحابه فهم لا يستطيعون كتمانه»[1].

أما طريقة جلوس من عبدوا غير الله والشياطين فيصورها قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جهنّم جِثِيًّا ﴾ ﴿مريم: ٦٨﴾ قال أهل التفسير: ندع الذين ظلموا أنفسهم، فعبدوا غير الله، وعصوا ربهم، وخالفوا أمره ونهيه في النّار جثيًا، يقول: بروكًا على ركبهم، والجثيّ: شرّ الجلوس، لا يجلس الرجل جاثيًا إلا عند كرب ينزل به، أي أنهم لشدة ما هم فيه لا يقدرون على القيام، أو أنهم يقبلون من المحشر إلى شاطئ جهنّم عتلًا، أي: نحضر هؤلاء المجرمين حول جهنّم قعودًا على الركب، من شدة الهول والفزع، لا يطيقون القيام على أرجلهم لما يدهمهم من شدة الأمر[2].

وإذا تأملنا الأصوات الَّتي تكونت منها لفظة (جثيًّا) نجد الجيم وهي حرف مجهور انفجاري احتكاكي، ويتحدّث الباحثون عن أنّ المصادر الَّتي تبدأ بالجيم تدل على انفعالات نفسية سلبية، وأنّ لها انعكاساتها المحسوسة على وجوه الناس وأصواتهم مما يُشاهد بالعين أو يُسمع بالأذن[3].

وهكذا نجد أنَّ جثيّا تحاكي معناها فتنقل لنا العديد من الانفعالات النَّفسية داخل المشهد الذي تنقله، مشهد الكرب الذي يظهر في ملامحهم دون أن ينطقوا أو يتكلموا، ولكن وجوههم تنقل رَجَفاتِ قلوبهم، واضطراب أرواحهم، وتقلّب أجزاء جسدهم، نظرًا لهذا الجيش من التوجّس والقلق الذي يصيبهم جراء الانتظار، وهم في موقف مهيب لا تستر ولا تغييب فيه، في حساب عسير ينتظرهم، كل هذا نقله لفظة المصدر(جثيّا) المكوّن من حرف الجيم المجهورة وحرف الثاء المهموس الذي يلي حرف الجيم، وهذا الحرف المهموس الذي يشي بانكسار وذلّ لا يخفى، ثمّ تأتي الياء

(١) ينظر: أحمد، صلاح الدين: التصوير المجازي والكنائي، مكتبة سعيد رأفت، مصر، ط (١)،١٩٨٨م. ص١٨.

(٢) ينظر: جامع البيان،ج١٨،ص٢٣٨، والكشاف، ج٣، ص٣٣، ومفاتيح الغيب، ج٢١، ص٥٥٧،التحرير والتنوير، ج١٦، ص٦٨.

(٣) عباس، حسن: خصائص الحروف العربية ومعانيها، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، ١٩٩٨م، ص٤٣.

المشدّدة لتوحي بالتبعثر والانطلاق إلى ما لا نهاية وفيه وصف لكثرتهم يوم المحشر[1]، نجد لفظة (جثيّا)، ترسم لنا صورة لهؤلاء حول جهنّم في مكان يجثون على رُكبهم، ويحيط بهم الخوف والرعب والهلع، فهو المشهد المفزع الذي يجثو فيه العتاة جثوَّ الخزي والمهانة، ويروح فيه المتقون ناجين، ويبقى الظالمون فيه جاثين.

ويؤدي المدُّ الذي يمثل شكلًا من أشكال التنغيم دورًا ملحوظًا في محاكاة الألفاظ للمعاني إليك كلمتي باسقات ونضيد في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ **بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ** *﴾ [ق: ٩ – ١٠] ففي الوقف في التلاوة على لفظة (بَاسِقَاتٍ) تمدّ الألف فيها ستّ حركات، وهو المدّ العارض للسكون، فيحاكي هذا الامتداد في اللَّفظ علوّ النَّخلة وارتفاعها شامخة في طبقات الجوّ مع رشاقتها المعهودة الَّتي تنتهي في أعلاها بذلك السعَف الجميل المتهدّل على جوانب قمّتها من كل جهة، حتى أنها لتبدو كفتاة جميلة فرعاء. وإذا تلا القارئ بعد ذلك لفظة (نضيد)، ووقف على الدال، استشعر السامع بهذا المدّ الهابط (الياء) خلاف ما استشعره بذلك المدّ الصّاعد، الذي قبله في (بَاسِقَاتٍ)؛ إذ يستشعر بسمعه قبل بصره، هذا التنضيد الذي في الطلع، وقد غُطّي بغطائه الربّاني الجميل، ذي الرائحة الذكية التي تأسر القلوب، وتخلب الألباب.

ومن الإيحاء الصّوتي المحاكي للشعور بالنّدم ما تحدثه (هاء السكت) في قول من فرّط في ما ينبغي عليه أداؤه إزاء ربه وأهله كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٥ – ٢٩] إنها « وقفة طويلة، وحسرة مديدة، ونغمة يائسة، ولهجة بائسة. والسياق يطيل عرض هذه الوقفة حتى ليُخيّل إلى السامع أنها لا تنتهي إلى نهاية، وأن هذا التفجّع والتحسر سيمضي بلا غاية، وذلك من عجائب العرض في إطالة بعض المواقف، وتقصير بعضها، وفق الإيحاء النَّفسي الذي يريد أن يتركه في النفوس. وهنا يراد طبع موقف الحسرة وإيحاء الفجيعة من وراء هذا المشهد الحسير. ومن ثم يطول ويطول، في تنغيم وتفصيل. ويتمنى ذلك

(١) الشريف، نورة سعيد: التصوير بالحقيقة في القرآن الكريم، ص٤٨.

البائس أنه لم يأت هذا الموقف، ولم يؤت كتابه، ولم يدر ما حسابه كما يتمنى أن لو كانت هذه القارعة هي القاضية، الَّتي تنهي وجوده أصلًا فلا يعود بعدها شيئًا.. ثم يتحسر أن لا شيء نافِعَه ممّا كان يعتزّ به أو يجمعه: ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ.. هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ.. فلا المال أغنى أو نفع. ولا السلطان بقي أو دفع.. والرنة الحزينة الحسيرة المديدة في طرف الفاصلة الساكنة وفي ياء العلة قبلها بعد المد بالألف، في تحزن وتحسر.. هي جزء من ظلال الموقف الموحية بالحسرة والأسى إيحاء عميقًا بليغًا»[1].

ومن الإيحاء الصّوتي الإفرادي، المدّ بالألف المشعر بالندم والألم النَّفسي، في مثل قول الكافر يوم القيامة، وقد وقف بين يدي ربه للحساب ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ **يَا حَسْرَتَا** عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ [الزمر- ٥٦]فقوله: (يا حسرتا) لفظ يحاكي صوت توجّعه وندمه من خلال هذين المدّين اللذين اكتنفا اللَّفظ، وهما مدُّ (يا) ومدُّ (تا)، مضاعفًا إحساس المتلقّي بندم المُلقي المرير، فضلًا عما في نداء الحسرة بحرف النداء (يا)، من تشخيص استعاري للحسرة، حين جعلها تنادي كما ينادي العاقل، وهذا من بليغ بيان التنزيل. «والألف في قوله (يَا حَسْرَتَا) هي كناية المتكلم، وإنما أريد: يا حسرتي، ولكن العرب تحوّل الياء في كناية اسم المتكلم في الاستغاثة ألفا، فتقول: يا ويلتا، و يا ندما، فيخرجون ذلك على لفظ الدعاء»[2].

وتحاكي لفظة (نضّاختان) كيفية استمتاع أهل الجنة بالخيرات الَّتي تخرج من عيون الجنة من ماء ومسك وعنبر وفاكهة في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ **نَضَّاخَتَانِ**﴾ [الرحمن: ٦١ – ٦٦] قال المفسرون: نضاختان يعني فوارتان بالماء، والنضخ أكثر من النضح؛ لأنّ النضح مثل الّرش، ولأنّ النضخ دون الجري، ومعنى نضاختان: تنضخان بالماء، أو ممتلئتان به، أو تنضخان بالماء وبألوان الفاكهة[3]. تحاكي هذه اللَّفظة بجرسها آلية اندفاع الماء، فيرشّ ما حوله، ويتناثر الرذاذ هنا وهناك، فيستمتع أهل الجنة بهذا الجو الجميل، ويشعرون بالأنس والدعة والسرور.

(١) قطب، سيّد: في ظلال القرآن، ج٦، ص٣٦٨١-٣٦٨٢.

(٢) الطبري: جامع البيان، ج ٢١، ص ٣١٣.

(٣) الطبري: جامع البيان، ج٢٣، ص٧٢، والكشاف، ج ٤،ص٤٥٣، ومفاتيح الغيب ج٢٩، ص٣٧٩.

## الخاتمة

وقف البحث أمام مجموعة من الألفاظ الَّتي تحاكي معناها في القرآن الكريم وقد كان معظمها يصور بجرس ألفاظه ما أراده الحق سبحانه وتعالى، وتجعل المتلقي يقلب الطرف ويشنف الأذن مبهورًا بعظمة الصورة ودقّتها ومطابقتها للحقيقة.

فضلا عما سبق تُحدث هذه المحاكاة في النَّفس المدربّة على تذوّق الجمال شعورًا لا يماثله شعور، فتراه يقف أمام صورة يتعرف من خلالها على أشياء قد يكون عرفها من قبل، لكن يلفت انتباهه براعة نقلها، ودقّة المحاكاة بينها، وبين الأصل الذي يعرفه، كما أنّ هناك علاقة وشيجة بين طبيعة الأصوات والمشاهد الَّتي تصورها، وهذا كلام ينطبق بعمومه على كل ما أبدعته قريحة الشّعراء والكتاب وأرباب اللسن والفصاحة، لكن يبقى النَّص القرآنيّ ذا خصوصية مستمدَّة من مرسله الذي صوّر، فأبدع سبحانه وتعالى.

## النتائج

ومن النتائج الَّتي توصل إليها البحث:

١. أنّ اللَّفظ الذي يحاكي معناه ينفرد بمعنًى لا يكون في غيره، ويرسم بجرسه وموسيقاه المشهد متكاملًا دون اللجوء إلى أدوات البيان من تشبيه واستعارة وكناية، ولا بدّ أنْ يحوي داخله ظلالًا وإيحاءات تهز وجدان المتلقي، ولعل هذا الأمر يميزه عن نقل الحدث بطريقة إنشائية أو سرده كسرد الحكاية.
٢. تصوير المشاهد المتعدّدة الأحداث والصور باللَّفظة المفردة وإن كانت خاليةً من المجاز إلا أنّ ذلك لم يفقدها جماليتها الفنيّة نظرًا لتميّزها بإيحائها وظلالها وجرْسها وقدرتها الخاصة على نقل الأحداث الَّتي يتعيّن نقلها بطريقه دون غيرها.
٣. محاكاة الألفاظ لمعانيها في الآيات التي تصور عذاب الكفار والمتجبرين والمتكبرين خاصة تتجلّى في تصوير مشاهد القيامة، وقد يعمد الباري جل شأنه إلى إحضار المشاهد المرئية حولنا ليثبتها في الذهن، وتحقيق الغرض من

استحضارها بطريق الصورة الَّتي تبدو في الذهن أركز، وأعمق تأثيرًا.

٤. يبدو جمال الألفاظ الَّتي تحاكي معناها في أمرين أولهما: مادة اللَّفظ حيث يصطفي الحقّ سبحانه وتعالى لفظة دون غيرها لتكون خير معبر عن المعنى المراد دون الحاجة للعديد من المفردات، وثانيهما: جرس اللَّفظ وإيحاؤه الصّوتي وبنيته الصرفية تتضافر كلها في تشكيل الصورة ونقل المشهد والتأثير في المتلقي.

٥. رغم ما عبّرت عنه المفردات القرآنية من دقّة في محاكاة المعنى إلا أنّ ما يميزها هو حسن تناغمها مع جاراتها في إبراز المشهد المراد تصويره.

٦. فطن علماء العربيَّة بدءًا بالخليل بن أحمد مرورًا بسيبويه، وانتهاءً بابن جني ومن نحا نحوه إلى يومنا هذا إلى ظاهرة محاكاة الألفاظ للمعاني بجرسها أو ببنيتها الصرفية أو بطريقة نطقها وما يصاحبه من نبر وتنغيم، ففاضت قرائحهم بصور جميلة من كتاب الله تعالى المعجز في كلّ جزئيّة من أجزائه العظيمة.

## المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

١. ابن الأثير، نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين:المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت١٤٢٠ ه.
٢. أحمد، صلاح الدين: التصوير المجازي والكنائي، مكتبة سعيد رأفت، مصر، ط (١)،١٩٨٨م.
٣. ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط (٤).
٤. حبنّكة، عبد الرحمن حسن: البلاغة العربيَّة، دار القلم دمشق الدار الشامية بيروت، ط (١)،١٤١٦ه، ١٩٩٦م.
٥. حقي الإستانبولي، إسماعيل، تفسير روح البيان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د ت).
٦. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، تح: صفوان عدنان الداوودي، دار العلم، الدار الشامية، دمشق، ١٤١٢ه.
٧. الزمخشري، محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧ه.
٨. الزَّوْزَني، أبو عبد الله حسين بن أحمد بن حسين، شرح المعلقات السبع، دار احياء التراث العربي، ط(١) ١٤٢٣ه - ٢٠٠٢ م.
٩. الشريف، نورة سعيد: التصوير بالحقيقة في القرآن الكريم، رسالة ماجستير(مخطوط)، جامعة الإمام محمد بن سعود.
١٠. الشّعراوي، محمد متولي: تفسير الشّعراوي، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.
١١. الصالح، صبحي: مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط (٤)، ٢٠٠٠م.
١٢. الطَّبريّ، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان في تأويل القرآن، تح: محمود محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(١)، ٢٠٠٠م.
١٣. طنطاوي، محمد سيد: التفسير الوسيط، دار نهضة مصر، القاهرة، ط (١)، ١٩٩٧م.
١٤. ابن عاشور، الطاهر: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ط (١)١٩٨٤.
١٥. عباس، حسن: خصائص الحروف العربيَّة ومعانيها، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، ١٩٩٨م.
١٦. الفخر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر: مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط (٣)١٤٢٠ه.
١٧. القزويني،محمد بن عبد الرحمن بن عمر، الإيضاح في علوم البلاغة تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط (٣).

١٨. قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة ط (١٧)، ١٤١٢ه.
١٩. ابن القيّم: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين: جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، تح: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة – الكويت، ط (٢)، ١٤٠٧ – ١٩٨٧.
٢٠. أبو موسى، محمد: خصائص التراكيب (دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني) مكتبة وهبة، ط (٧).
٢١. الياسوف، أحمد: جماليات المفردة القرآنية، دار المكتبي، دمشق، سورية، ط (٣)،٢٠٠٩م.